

2022

من الأوجه البلاغية في قصيدة فتح عمورية لأبي تمام (ت 231 هـ)

د. طارق امين ساجر الرفاعي
كلية الآداب - الجامعة العراقية

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad>



Part of the [Arts and Humanities Commons](#), and the [Law Commons](#)

Recommended Citation

الرفاعي, د. طارق امين ساجر (2022) "من الأوجه البلاغية في قصيدة فتح عمورية لأبي تمام (ت 231 هـ)", *Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal*: Vol. 8: Iss. 1, Article 4.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad/vol8/iss1/4>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

من الأوجه البلاغية
في قصيدة فتح عمورية
لأبي تمام (ت 231هـ)

د. طارق امين ساجر الرفاعي
كلية الآداب – الجامعة العراقية

م

قال الطبري: ((في سنة (223هـ) ثلاث وعشرين ومائتين للهجرة، أوقع توفيل بن ميخائيل صاحب الروم بأهل زَبْطَرَةَ فأسرههم وخرَّب بلدهم، ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصون من المسلمين وسبا من المسلمين فيما قيل أكثر من ألف امرأة، ومثَّل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم وقطع آذانهم وأنافهم⁽¹⁾ .

فصاحت امرأة زَبْطَرِيَّةً مسلمة من السبايا (وامعتصماه) فبلغ المعتصم ذلك وفي يده قدح يريد أن يشرب ما فيه، فوضعه، وأمر بان يحفظ، وقال: لبيك لبيك وصاح في قصره النفير، ثم ركب دابته وخرج من وقته، وكان سبب فتح عمورية، فلما رجع من فتحها شربه⁽²⁾ .

هكذا كانت الأحداث التي دفعت أبا تمام (ت231هـ) لأن يقول قصيدته هذه ؛ الشهيرة بفتح عمورية التي مطلعها :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ⁽³⁾
القصيدة من البحر البسيط ، والقافية متراكب ، وبناء

البحر :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

واختار أبو تمام هذا البحر لقصيدته لسعته ؛ واستحكام عروضه وضروبه وانبساطه ، قال القرطاجني: ((ومن تتبع كلام الشعراء في جميع الأعاريض وجد الكلام الواقع فيها تختلف أنماطه بحسب اختلاف مجاريها من الأوزان ووجد الافتتان في بعضها أعم من بعض فأعلاها درجة في ذلك الطويل والبسيط)) - ثم يواصل شغفه بالبحر البسيط في موضع آخر فيقول : ((فالعروض الطويل تجد فيه أبداً بهاء وقوة وتجد للبسيط سبابة وطلاوة))⁽⁴⁾ . ووصفه الألوسي في الفوائد الألوسية بقوله: ((وسمي هذا البحر بسيطا لكثرة أجزائه من البسيطة وهي السَّعة أو لشهرته أو لكثرة استعماله من البسط وهو النشر أو لانبساط الحركات في عروضه وضروبه إذ الألف كانت فاصلة بينهما فلما حذفت انبسطت تلك الحركات))⁽⁵⁾ وذكره جلال الدين الحنفي بقوله : ((فهو من بحور الشعر التي أولع

(1) تاريخ الطبري: 29/5، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: 336 .

(2) تاريخ الطبري: 29/5، وديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي: 62/1، وديوانه

بشرح الصولي: 199/1، والنظام لابن المستوفي: 44/2 .

(3) القصيدة من البحر البسيط، وقافيتها المتراكب .

(4) ينظر منهاج البلغاء ص268 - 269 .

(5) الفوائد الألوسية على الرسالة الأندلسية الشيخ عبد الباقي سعد الدين الألوسي -

مخطوط / ص18 .

3

مطلعه بالغرض من القصيدة، بل أشار وأوماً بعبارات توحى وتدل عليه، وبذلك استوفى حسن الأداء وسمو الإبداع؛ في حسن المطلع وبراعة الإستهلال.

لقد بين القرطاجني أهمية ذلك بقوله: ((وتحسين الاستهلالات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها، المنتزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة؛ تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقي ما بعدها)) (1).

وفصل ابن حجة شروط المطلع بقوله: ((براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعاني واضحة في استهلالها، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة، وأن يكون التشبيب مرقصاً عند السماع، وطُرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشّم الحزن، ومطلعها مع اجتتاب الحشو ليس له تعلق بما بعده. وشرطوا أن يجتهد الناظم في تناسب قسميه بحيث لا يكون شطره الأول أجنياً من شطره الثاني)) (2).

هذه الشروط السبعة وضعها لكمال (حسن المطلع).

أما شروط (براعة الاستهلال) فذكرها بقوله: ((أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بُنيت عليه، مُشعراً بغرض الناظم من غير تصريح؛ بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويُستدل بها على قصده من عتب أو عذر أو مدح...، وكذلك في النثر، فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسان هذا الميدان)) (3) وقد وُفق أبو تمام لهذا أيّما توفيق.

2. والعلم في شهب الأرماع لامعة بين الخمسين لا في السبعة الشهب (استعار) العلم الحقيقي لفعل أسنة الرماح بقوله: (والعلم في شهب ..)، إذ شبه ما يرد من الأخبار عن طريق فعل الرماح بما يرد منها عن طريق الكتب بجامع التعبير عن الأحداث في كل؛ أي إن الخبر ما تراه لا ما تسمعه، (استعارة مكنية). والمعنى: أن العلم لفعل الأرماع بين الجيوش لا بما يتوهمه المنجمون أن الفعل للشهب السبعة، وبذلك فانه واكب في الشطر الأول من هذا البيت ونصف الشطر الثاني المعاني الواردة في البيتين قبله، و(تخلص) بقوله: (لا في السبعة الشهب) إلى الغرض الثاني للقصيدة، إذ انتقل بلطف وسلاسة من المدح الذي في المطلع إلى الهجاء والذم في الأبيات بعده من غير أن يقطع توالي المعاني في الذهن أو أن يحدث صدمة في نسق الألفاظ.

وكان (حسن التخلص) هذا في القافية وهو أشهره، وفي جزء من الشطر وهو الغاية في هذا الباب، كما قال القرطاجني: ((فالذي يجب أن

(1) منهاج البلغاء: 309.

(2) خزانة الأدب للحموي: 21-19/1.

(3) خزانة الأدب للحموي: 30/1.

5

هذا المثل لتخرصاتهم وأحاديثهم المزخرفة الملفقة فشبه هيئة بطلانها وعدم جدواها وقيمتها بهيئة قوله: (ليست بنبع إذا ...).

5. عَجَائِباً زَعَمُوا أَيَّامَ مُجَفَّلَةٍ عَنْهُمْ فِي صَفَرِ الْأَصْفَارِ أَوْ رَجَبٍ
6. وَخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ ذَهْيَاءِ مُظْلَمَةٍ إِذَا بَدَأَ الْكَوْكَبُ الْعَرَبِيُّ ذُو الذَّنَبِ
7. وَصَيَّرُوا الْأَبْرَاجَ الْعُلَيَّا مُرْتَبَةً مَا كَانَ مُنْقَلَبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلَبٍ
8. يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ مَا دَارَ فِي فَلَكَ مِنْهَا وَفِي قُطْبٍ
9. لَوْ بَيَّنَّتْ قُطْرُ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ لَمْ تُخَفِ مَا حَلَّ بِالْأَوْتَانِ وَالصُّلْبِ

قوله: (عجائبا..). هذا البيت مرتبط بالبيت قبله، فقوله: (ليست بنبع إذا عدت ولا غرب) جملة اعتراضية، وهي (مثل) يدلل به أبو تمام على ما أراد من معنى كما ذكرنا، وقد أورده في بيت آخر بهذا المضمون بقوله: (1) هِيَاهُ أَبْدَى الْيَقِينُ صَفْحَتَهُ وَبَانَ نَبْعُ الْفَخَارِ مِنْ غَرَبِهِ

فتكون العبارة: (تخرصا واحاديثا ملفقة .. عجائبا..). وجاء نصب (تخرصا) على المصدر من معنى قوله: (صاغوه) في البيت قبله، ويجوز أن يكون حالا والأول أجود⁽²⁾. وعجائبا بدل من أحاديثا.

وهذه التخرصات زعموا أن الأيام ستكشف عنها في صفر أو رجب. وفي قوله: (الاصفار) (الاستخدام) : وهو أن يأتي المتكلم بلفظة لها محملان...، (3) إذ التعظيم من جانب الروم على ما ذكروه من الخرافات، والاستهزاء من ناحية الشاعر بأنها أصفار لا عد ولا قيمة لها، وشبهه انحسار الأيام عنها بقوله: (زعموا... عنهن) بالنعام إذا أحسَّت بالخطر يحرق بها هربت مسرعة فانكشف ما تحتها، فحذف المشبه به واستعار ذلك للأيام (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد، وفي قوله: (صفر الاصفار) (جناس مشتق).

ثم ذكر بعضا من هذه الخرافات التي أرهبوا بها الناس، بأن هناك أمراً عظيماً ستقع الأضرار والأهوال فيه عند ظهور الكوكب المذنب في السماء من جهة الغرب، وجعلوا ما يجري في الكون من أحداث بفعل أبراج السماء الإثني عشر، فإذا ورد عليهم خبر في وقت الطالع فيه بُرج ثابت حَقَّقوه، وإن كان الطالع برجا منقلبا لم يحَقَّقوه⁽⁴⁾. وذلك في قوله: (مرتبة ما كان مُنْقَلَبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلَبٍ) وفيه (المطابقة) في قوله: (منقلبا - غير منقلب). وأنهم جعلوا أحوال هذه الأبراج وتقلباتها دستورا يحكمون به مصيرهم ومستقبلهم، متجاهلين قدرة الله عز وجل وتصريفه للكون، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وكل ذلك يجري وينسب لفعل الأبراج الدائرة في أفلاكها أو القطب الثابت منها؛ وهي لا تفعل ولا تدري ولا تعلم ما ينسب إليها من الأفعال.

(1) شرح الصولي لديوان أبي تمام : 323/1 .

(2) النظام: 10/2 ، ينظر ما ورد فيه من قول الخارزنجي .

(3) البرهان في إعجاز القرآن : 150 .

(4) ينظر: ديوان أبي تمام بشرح التبريزي: 45/1 .

أراد أن يجسّد أهمية مدينة عمورية للروم فاستعار لها الأمومة التي تجمعهم وكأن ما حولها من المدن تابع لها متأثر بها تستحق أن يفقدوها بأهماتهم وأبائهم (استعارة تصرّحية)، وفيه (المطابقة) بين (أم-وَأب)، (التكرار) في (أم) لاختلاف تعلقها.

15. وَبَرَزَةُ الْوَجْهِ قَدْ أَعَيْتَ رِيَاضَتَهَا كِسْرَى وَصَدَّتْ صُدُوداً عَنْ أَبِي كَرْبٍ
قوله: (برزة الوجه) أي: المرأة التي تخاطب الرجال ولا تسترّ منهم⁽¹⁾؛ وفي ذلك (كناية) عن شموخ المدينة وعنفوانها ومنعتها التي أعجزت كسرى وأبا كرب من فتحها، و (كناية) بقوله: (أعيت رياضتها) عن كثرت الحروب التي دارت حولها لأجل قهرها، وفي قوله: (صدت صدوداً) (كناية) عن تعزّزها وعدم مبالاتها بالأعداء. وهذه الأوصاف تدل على أنها عسيرة على من تعرض لها. وفي البيت (المطابقة) بين (برزة – وصدت).

16. بِحَرْفٍ فَمَا أَفْرَعَتْهَا كَفَّ حَادِثَةً وَلَا تَرَفَّتْ إِلَيْهَا هَمَّةُ النُّوبِ
17. مِنْ عَهْدِ إِسْكَندَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِبْ⁽²⁾
(كناية) عن قهر عمورية للأعداء طول الزمن بقوله: (بكر فما..) فلم يخترق حصونها احد منهم، و (كناية) عن تحصنها وارتفاعها بقوله: (ولا ترفقت إليها..) أي إن النوائب والرزايا لم تنلها. و (كناية) عن طول العهد بقهرها للجيوش ومنعتها وتماسك أبنيتها وأسوارها بقوله: (من عهد..) و (استعار) العجز والشيخوخة والشيب الذي يصيب الإنسان، إلى الليالي بقوله: (شابت نواصي الليالي) التي ظهر عليها الهرم من كثرة عددها وانصرامها، و (استعار) الفتوة لـ (عمورية) بقوله: (وهي لم تشب) إذ لم تظهر عليها علامات الوهن ولم تؤثر بها عاديّات الزمن على الرغم من قدمها. وفي البيت (المطابقة) في قوله: (شابت – لم تشب)

18. حَتَّى إِذَا مَخَضَ اللَّهُ السِّنِينَ لَهَا مَخَضَ الْبَخِيلَةِ كَانَتْ زُبْدَةُ الْحَقْبِ
(استعار) للثراء وكثرة الأموال والنعمة التي تنعم بها مدينة عمورية قوله: (مخض الله السنين لها) إذ شبّه الاتجار بالأموال وجنائها طول السنين تلك، بمخض اللبن. و (استعار) لاكتناز الأموال وكثرتها قوله: (مخض البخيلة) إذ إن البخيلة تبالغ في تحريك اللبن وتبذل الجهد بروية وبحرص لتستقصى ما فيه من الزبد، و (استعار) لكثرة الغنائم والأموال التي استولى عليها المعتصم قوله: (كانت زبدة الحقب) أي إنها نمت وتكدست واكثرت على طول الحقب والسنين ثم جعلها الله نصيب هذا السلطان. ويمكن جمع تلك الاستعارات لتكون (استعارة تمثيلية) فتقول: استعار هيئة مخض الحليب لمدة طويلة بحرص وجدية كمخض البخيلة التي تستقصى بروية لتكون الزبدة في النهاية بغاية الكثرة والضخامة، استعار ذلك لهيئة السعي

(1) شرح التبريزي: 47/1 .

(2) وفي النظام: شابت قرون : 21/2 .

وصف الحرائق التي صاحبت المعارك وصفاً دقيقاً وجسّدها تجسّيداً؛ فقال مخاطباً أمير المؤمنين المعتصم بالله القائد العام للمعارك: إنك تركت الصخر والخشب يومها وقوداً للمعركة تأكله النار فصار ذليلاً؛ بعد أن كان بتحصيله لأسوار عمورية عزيزاً؛ فشبهه قوله: (لنار يوما.. الخ البيت) بخذلان جيش الروم وانهياره واستسلامه، وحذف المشبه به وترك من لوازمه قوله: (ذليل)، واستعار ذلك عن انهيار المدينة وأهلها (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد .

ثم بالغ بالوصف فقال: لقد جعلت فيها ظلام الليل الملبّد كأنه الضحى، وقد تبدد ظلامه بتأجج لهب النيران وسط المدينة فكان لشدته؛ أنواره كإشراقه شمس الضحى وذلك بقوله: (غادرت ... ضحى) وفيه (المبالغة)، و(التشبيه البليغ) بقوله: (وهو ضحى)، و(استعارة) قوة المارد التي تقهر الأعداء وتهزمهم إلى (اللهب) الذي طرد ظلام الليل بقوله: (يشله وسطها صبح من اللهب)، وحذف المشبه به وترك من لوازمه قوله: (يشله) أي يطرده. (استعارة مكنية) و(طابق) فيه بين قوله: (غادرت - ويشله) وبين (الليل والصبح) .

ثم (شبهه) بالبيت الذي يليه قوة أنوار الحرائق؛ بالقمصان والأردية التي تخلّت لشدة الأنوار عن ألوانها الداكنة إلى الألوان الزاهية الناصعة، وإن هذه الأنوار بالغة الصمود توحى كان الشمس توقفت تجود بأشعتها وضياؤها فلا تغيب، وفي هذا البيت (الغلو) وهو: إفراط الوصف بالمستحيل وقوعه عقلاً .

ثم (كنّى) عن استمرار الحرائق مدة طويلة بقوله: (ضوء من النار.. الخ البيت) أي: إن ضوء النار يجعل الليل نهاراً، وظلمة الدخان تُصير الضحى شحياً⁽¹⁾ أي متغيراً، وهذا التناوب في التعبير يدل على طول المدة، وفيه (المقابلة) بين قوله: (ضوء من النار، وظلمة من دخان) و(المطابقة) في قوله: (ضوء-وظلمة، والظلماء-والضحى) .

ثم بيّن علاقة الشمس بتلك الحرائق فقال: إن الشمس في الظاهر طالعة من لهب النار وقد غابت على الحقيقة؛ وإن ضوءها ساقط في النهار بسبب الدخان وهي لم تسقط في الحقيقة في مغيبها. وفيه (المطابقة) بين (طالعة- وواجبة ، وأقلت- ولم تجب) ، و(الترصيع) ((وهو: عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو من الفقرة في النثر بلفظة على وزنهما ورويها وإعرابها غالباً في العجز من البيت أو الفقرة))⁽²⁾ وذلك بقوله: (فالشمس طالعة من ذا - والشمس واجبة من ذا) و(التكرار) في (الشمس) .

29. تَصَرَّحَ الدَّهْرُ تَصْرِيحَ الْغَمَامِ لَهَا
عَنْ يَوْمٍ هَيَّجَاءَ مِنْهَا طَاهِرٌ جُنُبِ
30. لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ فِيهِ يَوْمَ ذَاكَ عَلَى
بِأَنْ يَأْهَلَ وَلَمْ تَغْرُبْ عَلَى عَرَبِ

(1) ينظر: شرح التبريزي: 54/1 .

(2) ينظر: شرح الكافية البديعية: 190 .

(شبه) تكشف الدهر وتغير الأحوال؛ بتكشف الغمام، بقوله: (تصرح الدهر تصریح الغمام لها) (تشبيهاً بليغاً)، وذلك عن يوم من الأهوال والمعارك لقهر الظلم والطغيان، فكان جزاؤه يوماً طاهراً للمسلمين للفتح الجليل، وجنبا للروم لما أصابهم من القهر والسبي، و(طابق) في قوله: (طاهر -وجنب). ثم وصف ذلك اليوم بان الشمس لم تطلع فيه على بان بأهله من الروم لقتله، ولم تغرب فيه على عزب من جيش المعتصم لكثرة السبي، وفيه (المقابلة) بقوله: (لم تطلع على بان بأهل -ولم تغرب على عزب)، و(المطابقة) في قوله: (تطلع -وتغرب، بان بأهل -عزب).

31. مَا رُبَّ مَيَّةَ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ غِيلَانُ أَبْهَى رَبِّي مِنْ رَبْعِهَا الْخَرْبِ
32. وَلَا الْخُدُودُ وَقَدْ أَدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ أَشْهَى إِلَى نَظَرٍ مِنْ خَذَا التَّرْبِ (1)
33. سَمَاجَةٌ غَنِيَتْ مِنَ الْعُيُونِ بِهَا عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجَبٍ
34. وَحُسْنٌ مُنْقَلَبٍ تَبْقَى عَوَاقِبُهُ جَاءَتْ بِشَاشٍ تَهُ مِنْ سُوءٍ مُنْقَلَبٍ (2)

(غيلان): وهو ذو الرمة بن عقبة، يقول: ما ربع مئة المعمور الذي أكثر ذو الرمة وصف حسنه وشغف به بأحسن أو أجمل من ربي ربوع عمورية الخربة في نظر عيون فاتحيها من المسلمين؛ لأن خرابها كان من أعز أمنياتهم.

وفيه (التفريع): وهو أن يصدر المتكلم أو الشاعر كلامه باسم منفي(بما) خاصة ثم يصف الاسم المنفي بمعظم أوصافه اللانقة به في الحسن أو القبح ثم يجعله أصلاً يفرع منه جملة من جار ومجرور متعلق به تعلق مدح أو هجاء أو ... يفهم من ذلك مساواة المذكور بالاسم المنفي (الموصوف) (3) فالأصل قوله: (ماربع... غيلان) وفرع بقوله: (أبهى... الخ)، و(المطابقة) في (معمورا - والخرب)، و(التكرار) في (ربع) لاختلاف المتعلق. وعطف عليه البيت بعده بالسياق نفسه؛ فقال: ولا الخدود المشرقة التي تتورد بالحمرة عند الخجل الذي تتعرض له المرأة الجميلة، بأشهى في نظر الفاتحين من وجه عمورية المعقر بالتراب، وفيه (التفريع) فالأصل قوله: (ولا الخدود..خجل) والتفريع في قوله: (أشهى إلى... الخ البيت). و(استعار) لربوع المدينة الخدود، إذ شبه المدينة بالمرأة فحذف المشبه (المدينة) واستعار لربوعها (خدي المرأة) اللذان يمثلان الوجه الذي هو عماد جمالها.

ثم يضيف إلى ذلك معنى آخر في البيت بعده، إذ يقول إن قبح عمورية وشناعتها بسبب الدمار الذي حل بها؛ كان حسنه وجماله في عيون الفاتحين يفوق كل حسن يسر الناظرين أو جمال يأخذ بالألباب، لأن تخريبها وكسر شوكة الطغاة بها كان غاية عزيمة لذلك السلطان وجنده، وفيه (المطابقة)

(1) وفي النظام: وإذ ادمين: 36/2، وفي شرح الصولي: ولو ادمين: 196/1.

(2) وفي شرح التبريزي: تبدو عواقبه: 58/1.

(3) حسن التوسل: 291، خزانة الأدب للحموي: 828/2.

في قوله: (سماجة-وحسن). ثم وصف حسن منقلب المسلمين بأنه سليم العواقب بسبب سيطرتهم على المدينة، وأن السرور والنشوة قد حصلت لهم نتيجة لسوء منقلب الكافرين الخاسرين، وفيه (المقابلة) في قوله: (حسن منقلب-وسوء منقلب) و(المطابقة) في (حسن-وسوء).

35. لَمْ يَعْلَمْ الْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنْتُ لَهُ الْعَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ (1)
 36. تَذَبُّرٌ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٌ لِلَّهِ مُرْتَقِبٌ فِي اللَّهِ مُرْتَعِبٌ (2)
 37. وَمُطْعَمُ النَّصْرِ لَمْ تَكْهَمْ أَسْنَتُهُ يَوْمًا وَلَا حُجِبَتْ عَنْ رُوحٍ مُحْتَجِبٍ
 38. لَمْ يَغُرْ يَوْمًا وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ (3)
 39. لَوْ لَمْ يَفُتْ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعْيِ لَعَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبَ
 40. رَمَى بِكَ اللَّهُ بُرْجِيهَا فَهَدَمَهَا وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يُصِبْ

لم يعلم الكفار في عمورية كم من الأزمنة أحيطوا بأعدائهم بين الرماح والسيوف لغرض الإيقاع بهم، والتعبير يدل على الكثرة، وفي قوله: (لم يعلم الكفر) (مجاز عقلي) من الإسناد إلى المصدر: (الكفر) فالأصل أن يقول: (لم يعلم الكافرون)، وفي قوله: (أعصر كمنت) (مجاز عقلي) من الإسناد إلى الزمان وهو لم يفعلها، بل كان ذلك واقعاً فيه على سبيل المجاز، ثم المدينة لم تكثر بذلك ولم تحسب له حساباً مما جعلها لا تحصيهم؛ وفي ذلك (كناية) عن منعها وعظم حصونها.

ولكن الذي خربها وأوقع بهم وغلبهم كان تدبير هذا السلطان؛ الذي كان معتصماً بالله مراقباً له خائفاً منه في تصرفاته، متقيه يتقرب إليه عز وجل في أعماله، فكان بذلك منتصراً بالله تعالى، وفيه (التشطير): وهو أن يجعل كلاً من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها (4). وذلك في قوله (معتصم، منتقم-ومرتقب، مرتغب) و(الحذف) في قوله: (مرتغب) أي: في الله، و(التورية) إذ المعنى القريب لقوله: (معتصم بالله) صفة هذا السلطان لأنه بصدد ذكر صفاته في هذا البيت، والبعيد لقلبه الذي عرف به و(تكرار) لفظ الجلالة (الله) لزيادة التعلق به والتنويه بعظمته.

ثم أضاف لتلك المدائح أن المعتصم الفاتح كان منصوراً كثير الغنائم ولا تخطئ أسننته ولا يسلم منها من تسربل بدرع أو احتفى بحصن، وفي قوله: (مطعم النصر) (كناية) عن حسن الحظ، و(مجاز عقلي) وفيه الإسناد في النسبة الإضافية من إضافة اسم المفعول إلى المصدر؛ ولا يُطعم النصر بل يأتي، وقوله: (لم تكهم أسننته..)(كناية) عن الإصابة وحسن التدبير. وفي البيت (الموارد) وهو أن يتوارد الشاعران على بيت أو

(1) ورد في النظام: لو يعلم ... أعصر خبأت: 37/2، وفي شرح التبريزي: لو يعلم: 59/1.

(2) ورد في شرح الصولي: مقترب في الله مرتقب: 197/1.

(3) ورد في النظام: 40/2 وفي شرح الصولي: 197/1: لم يرم.

(4) الإيضاح: 224.

13

(واثقين بها)، ولكن الفاتحين ربابيون يد الله معهم ، ومن قوله تعالى: ((وَلَوْ أَنَّ هُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ)) [الحشر: 2] (الاعتباس) لقوله: (والله مفتاح.. الخ) . وفيه (رد العجز على الصدر) في قوله: (أشبهوها) والتفقيه بقوله: (الاشتب) . ومما زاد في اطمئنان الروم قول قائدهم لا تخافوا الغزاة فلا مرعى ولا ماء بالقرب منهم فإذا ضاق بهم الأمر انصرفوا عنكم، وفيه (المماثلة) في (صدد، وكتب) فكلاهما على وزن (فعل)، وفيه (الجمع): وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين فأكثر في حكم واحد⁽¹⁾. وذلك في قوله: (لا مرتع، وليس الورد) بالقرب منهم .

ثم بين إن هذه الخواطر والأمنيات التي بنوا عليها آمالهم، سلبتها منهم فعال السيوف المرفهة والرماح الطويلة، فهنا الفعل والقوة تتكلم. وفيه (الجمع والتقسيم) الجمع في قوله: (سلبتهم)، والتقسيم في قوله: (ظبي السيوف، وأطراف...) و(رد العجز على الصدر) في قوله: (السلب، وسلبتهم). ثم يؤكد هذا المعنى فيقول: إن الحمامين أي القتل الذي يحصل للروم بالسيوف والرماح، هما سببا حصول المسلمين الغزاة على الماء والعشب لإدامة حياة مواشيهم، وفيه (الجمع والتقسيم) الجمع في قوله: (إن الحمامين) والتقسيم في قوله: (من بيض، ومن سمر)، والجمع في قوله: (دلوا الحياتين) والتقسيم في قوله: (من ماء، ومن عشب)، وفيه (المماثلة) بين قسمي البيت: (إن الحمامين...) و(دلوا الحياتين...).

45. لَبَّيْتُ صَوْتًا زَبْطَرِيًّا هَرَقْتُ لَهُ كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخَرْدِ الْعُزْبِ

46. عَذَاكَ حَرُّ الشُّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ بَرْدِ الشُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْحَصْبِ (2)

47. أَجَبْتُهُ مَعْلَنًا بِالسَّيْفِ مُنْصَلِتًا وَلَوْ أَجَبْتُ بَعِيرَ السَّيْفِ لَمْ تُجِبْ (3)

48. حَتَّى تَرَكْتُ عَمُودَ الشَّرِكِ مُنْعَفِرًا وَلَمْ تُعْرِجْ عَلَى الْأَوْتَادِ وَالطُّنْبِ

قال الصولي: ((قوله: (لبيت صوتا زبطريا) معناه: إنه بلغ المعتصم بالله إنه أغير على زبطرة، فاخذ العدو سببا فصاحت امرأة منهم ((وامعتصماه)). فبلغه ذلك. فقال: لبيك لبيك! فخرج من وقته، وكان سبب فتح عمورية، وهرقت كأس الكرى، هذا مثل)) (4) .

خاطب الشاعر السلطان القائد بقوله: (لبيت صوتا زبطريا) لم يكن ذلك الصوت صوت أمير أو قائد أو كبير قوم يتوجب على السلطان إجابته، بل كان صوتا مغمورا لا يؤبه له، فكانت استجابة المعتصم له وتلبيته (كناية) عن مروءته وشهامته وغيرته لانتهاك الأعراض والبلاد، ودليلا على أنه

(1) خزانة الأدب للحموي: 226/2 .

(2) ورد في النظام: 46/2: حماك حر .

(3) ورد في شرح الصولي: 199/1: أجبته معلما .

(4) شرح الصولي: 199/1 .

جدير بمسؤولياته القيادية أمام الله ورعيته، وأَنْ إهراقه للملذات حوله (كناية) عن حماسته وهمته العالية الصادقة في إجابته من استغاثة. لا كما يجري اليوم إذ إن القادة لم يكتفوا بعدم المبالاة بالأعراض ومصير البلاد؛ بل تأمروا مع الأعداء على بلدانهم وشعوبهم ، فالفرق جد بعيد... قوله: (هرقت له كأس...) (استعار) الكأس الذي يتلذذ به في شرايه، لمأواه الذي يستمتع به في نومه، وإلى ثغور الحسان اللاتي يتوددن له فيسقينه من رضابهن لمؤانسته. ويمكن أن نقول إن قوله: (هرقت له كأس...) (استعارة تمثيلية) إذ إنه استعار إهراقه للملذات، وإعراضه عن النساء. إلى معاناته عند لقاء الأعداء، وآلامه في معارك الجهاد، فالمناجزة ليست لعبة، بل يجري عليه ما يتوقعه المقاتل في ساحة الوغى، وفي البيت (الجمع والتقسيم) الجمع في قوله: (هرقت له) والتقسيم في قوله: (كأس الكرى- ورضاب..).

ويعاود الشاعر الوصف بأسلوب آخر في البيت بعده فيقول: (عداك..). أي: آل بك أو صرفك-ما يجري في الثغور التي يتوقع أن يخترق منها الأعداء البلاد؛ وما يقع من آلام وضيم وقهر منهم على ساكنيها؛ بنخوتك لهم ووقوفك صفا معهم-صرفك ذلك عن الاستمتاع ببرد ثغور الحسان وعن رضابهن. إذ إنه (استعار) من قوله: (برد الثغور وعن سلسالها الحصب) أي: الماء البارد العذب الذي يجري على الحصباء الناعمة التي تزيده نقاءً وعذوبة، إلى رضاب الحسان الذي يستقيه من بين أسنانهن التي تزهو كاللؤلؤ (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد . و(المطابقة) بين (حر الثغور-وبرد الثغور) إذ المفارقة بعيدة بين من يكابد العدو؛ وبين من يتلذذ برضاب الحسان. و(الجناس التام) في (الثغور: جمع ثغور العدو-والثغور: أفواه النساء) وفيه فضلا عن المعاني مضاعفة إيقاع أبيات القصيدة .

ثم خاطبه إنك أجبت النداء معلنا النفير بالسيف المتجرد ماضيا بعزم ماضٍ في إغاثتك، ولا جدوى من إجابتك بغير ذلك. وفي البيت (رد العجز على الصدر) أو (التصدير كما ورد عند ابن رشيق) في قوله: (أجبت في صدر البيت- وأجبت في أول العجز ثم قفى بـ) (تجب) و(التكرار) في قوله: (أجبت)، و(الاستخدام) في قوله: (منصلتا) فيمكن أن تكون حالا من تاء الفاعل في : (أجبت) تعود إلى المعتصم، أو حال من: (السيف) فنقول: السيف صلتاً ماضياً، أو المعتصم ماضياً فيما قصد، و(المطابقة) في قوله: (أجبت-ولم تجب، وبالسيف-بغير السيف) .

ثم خاطبه بأنك استهدفت دعامة حصون دولة الروم فحطمته وتركته يتخبط بالتراب، فاستعار بقوله: (حتى تركت عمود الشرك منعفرا) أي إنه حطم عمود الخيمة وألقاه أرضاً فانهارت بذلك على مَنْ فيها، (استعار) ذلك لمدينة عمورية ملجأ الروم ومأواهم ومخزن أرزاقهم ففتحها وحرقها وحطمها، فَشَلَّ بذلك قدرة الروم على القتال وسبى وقتل منهم الكثير

(استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد ، ثم إنه لم يلتفت إلى القرى والقصبات فإنها بحكم الساقطة، إذ (استعار) لها قوله: (ولم تعرج على الأوتاد والطنب) أو يكون ذلك (استعارة) إلى الغنائم والأموال التي لم يلتفت إليها ولم يكثرث بها لاستغنائه عنها، و(الجمع) في قوله: (عمود، والأوتاد، والطنب) إذ بها تقوم الخيمة .

49. لَمَّا رَأَى الْحَرْبَ رَأَى الْعَيْنَ تَوَفَّلَسَ وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ
50. غَدَا يُصَرِّفُ بِالْأَمْوَالِ جَرِيَّتَهَا فَعَزَّهُ الْبَحْرُ ذُو النَّيَّارِ وَالْحَدَبِ
51. هَبَّاهُتْ إِرْغَزَتْ الْأَرْضُ الْوَقُورَ بِهِ عَنْ غَزْوٍ مُحْتَسِبٍ لَا غَزْوٍ مُكْتَسِبٍ
52. لَمْ يُنْفِقِ الذَّهَبَ الْمُرَبِّي بِكَثْرَتِهِ عَلَى الْحَصَى وَبِهِ فَقَرَّ إِلَى الذَّهَبِ
53. إِنْ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ هَمَّتْهَا يَوْمَ الْكَرْيَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ (1)

عندما رأى قائد الروم (توفلس) الذي غار على زبطرة أن الحرب التي فيها الثوران والغضب وصرف الأموال قد وصلت إليه، وفي البيت (رد العجز على الصدر) في موضعين: (الحَرْبُ-والْحَرْبُ، الأول في حشو الصدر، والثاني في أول العجز ثم قفى بـ (الْحَرْبُ))، و(الجناس المحرّف) في (الحرب: القتال – والحَرْبُ : الغضب) أراد توفلس أن يَصْرِفَ جريتها أي: تبعات الحرب عنه بإرسال الأموال والهدايا لاسترضاء المعتصم ليكف عن حربه، إلا أن المعتصم ردّها عليه وكان كالبحر غطى توفلس بالرجال ومعدات القتال التي تتوالى كالسيول الجارفة. (استعار) قوله: (فعزه البحر...) أي: سعة وضخامة البحر وتوالي أمواجه العاتية المتتالية، إلى عظمة القائد المعتصم وجيشه العرمرم؛ الذي سحق جيش الروم وقيادته ووطأهم ، (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد .

ثم يقول: بَعْدَ عَنْ أَمَانِيَّتِهِمُ الثَّبَاتَ فَضلاً عَنْ النِّصْرِ، إذ إن فعل جيش المعتصم بهم بمثابة تزلزل الأرض من تحتهم، ذلك لأن هذا القائد لم يأت طامعاً بأموالهم بل لإرساء العدل والأمان لتلك الشعوب؛ محتسباً ذلك لله رب العالمين فنصره على طغاتهم الطامعين. (واستعار) بقوله: (زعزعت الأرض الوقور به) أي بتوفلس وقواته، وذلك كأن الأرض التي حملتهم واستقروا عليها قبل القتال، قد تصدّعت بعده تحتهم فابتلعتهم ؛ إشارة إلى سحقهم وانهيائهم؛ (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد، وفي البيت (التسهيم): ((وهو أن يكون ما يتقدم من الكلام دليلاً على ما يتأخر منه أو العكس)) (2) أي إن قوله: (زعزعت الأرض الوقور به) دليل عظمة فعل جيش الغزاة المشار إليه بقوله: (عن غزو...)، و(التسجيع) ؛ في المصراع الثاني في قوله: (محتسب-مكتسب) وفيهما (الجناس المضارع) أيضاً، و(الافتنان) إذ هجا في الشطر ومدح في العجز .

(1) ورد في شرح التبريزي: 66/1: اسود الغيل .

(2) البرهان في إعجاز القرآن: 145.

يَعْدُو...الظليم) دليل شدة استعار الحرب بقوله: (فقد أوسعت...الخ البيت)
فالسريعة الفاتكة لعدو توفلس في صدر البيت، دليل على تأجج الحرب وشدة
استعارها في عجزه .

58. تَسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضَجَتْ
59. يَا رَبِّ حَوِيَاءَ لَمَّا اجْتَثَ دَابِرُهُمْ
60. وَمُغْضِبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيُوفِ بِهِ
61. وَالْحَرْبُ قَانِمَةٌ فِي مَازِقِ لَجَجٍ
62. كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرٍ
63. كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا
64. كَمْ أَحْرَزَتْ قُضْبُ الْهِنْدِيِّ مُصْلَتَهُ
65. بِيضٌ إِذَا انْتَضَيْتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ
أَعْمَارُهُمْ قَبْلَ نَضْجِ التِّينِ وَالْعِنَبِ (1)
طَابَتْ وَلَوْ ضَمَخَتْ بِالْمِسْكِ لَمْ تَطْبُ
حَيَّ الرِّضَا مِنْ رَدَاهُمْ مَيِّتَ الْغَضَبِ
يَجْثُو الْقِيَامُ بِهِ صَغَرًا عَلَى الرُّكْبِ (2)
وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضِ شَنْبِ
إِلَى الْمُخَذَّرَةِ الْعُذْرَاءِ مِنْ سَبَبِ
تَهْتَزُّ مِنْ قُضْبٍ تَهْتَزُّ فِي كُتُبِ (3)
أَحَقُّ بِالْبَيْضِ أَبَدَانًا مِنَ الْحُجْبِ (4)

في هذه الأبيات وصف عام لعواقب هذه الحرب. قال التبريزي:
((ويقال إن بعض من كان بعمورية من الرهبان قال: إنا نجد في كتبنا أنه
لا يفتح هذه البلدة إلا ملك يغرس في ظاهرها شجر التين والكرم ويقوم حتى
يثمر، فأمر المعتصم بأن يغرس التين والكرم، فكان الفتح قبل ذلك،
فاستعار النضج للأعمار لما قابله بنضج التين والعنب)) (5)، ونسب ابن
المستوفي هذا الكلام لأبي العلاء، وذكر قول الخارزنجي: إن أصحاب
توفلس كانوا تسعين ألفا في العدد... (6)؛ من ذلك يتبين أن الذين ذكرهم أبو
تمام ((تسعون ألفا)) ووصفهم في شجاعتهم كأساد الشرى هم جند توفلس
وأن قطافهم قد آن قبل أوان التين والعنب .

وفي البيت (التشبيه المرسل) الذي ذكرت فيه الأداة، بقوله: ((تسعون
ألفا كأساد الشرى)) و(استعار) لأوان قتلهم قوله: ((نضجت أعمارهم))
(وال تكرار) في (نضج) لاختلاف العائد. ثم بين أن النفوس قلما تسر بما
سُرت به حشود جيش المعتصم؛ عندما سحقوا جيش توفلس وقطعوا
دابرهم، فبعث ذلك السرور فيهم نشوة النصر؛ بما كان أكثر أثرا مما لو
ضُمخوا بطيب المسك. و(طابق) في قوله: (طابت-ولم تطب)، وفيه (ردا
العجز على الصدر) أيضا. وأضاف بأن هناك مع المقاتلين من غضبوا الله
لانتهاك المحارم والتمثيل بالمسلمين، فعادوا بعد ما فعلته سيوفهم في تدمير

(1) أساد الشرى: والشرى: موضع تنسب إليه الأسد، يقال للشجاعان: ما هم إلا أسود
الشرى. ينظر اللسان: شرى .

(2) ورد في شرح التبريزي: 17/1: تجثوا القيام. وفي النظام: 67/2: تجثو القيام،
صعرا على ...

(3) ورد في شرح الصولي: 205/1: تهتز في قضب. وفي النظام: 71/2: تهتز من
كتب .

(4) ورد في شرح التبريزي: 72/1، وفي النظام: 71/2: بالبيض أترابا .

(5) ينظر شرح التبريزي: 70/1 .

(6) ينظر النظام: 65/2 .

ثم يصف الحرب بأن شأنها المآزق والضيق والمواقف الحرجة؛ ذلك لأن الطرفين يكيد أحدهما للآخر ويمكر به ويتحين الفرص ويضيق عليه لإهلاكه، حتى أن الشامخين والمتكبرين منهم قد يستسلموا أو يولّوا الأدبار في بعض المواقف و(استعار) لذلك قوله: (يجثو القيام...) أي: ينهار ويُخذل الشجاع المشار إليه بـ(القيام) فيستسلم في بعض المواقف من شدة أهوالها، و(المطابقة) في (يجثو-والقيام)، و(المبالغة) في قوله: (في مآزق لجج) إذ إن كلا المفردتين بمعنى واحد وهو: الضيق؛ فكررها للإفراط بالوصف؛ و(المبالغة) كذلك في قوله: (يجثو...)، و(الموارد) مع أبي محجن الثقفي إذ يقول⁽¹⁾ :

وذلك في قوله: (يجثو على الركب) . ثم يصف عواقب هذه الحرب بأنها كثيرا ما سبَّت في ظلها من جارية تضيء كالقمر حسناً، فاستعار من قوله: (كم نيل...قمر) لاشتعال الحرب واستعارها التي كانت سببا في النيل من حسن الجواري السبايا اللواتي كالأقمار، إذ استعار لاشتعال الحرب سنا النار، وللجواري الحسان سنا القمر (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد، واستعار بقوله: (وتحت عارضها ...شنب) لما يجري في ظل الحرب وخلالها وتحت أهوالها من النيل من برد رضاب عوارض أسنان الجواري السبايا، إذ استعار ما يثار من الدخان والغبار للسقف بقوله: (وتحت عارضها) وللاستمتاع بالنساء السبايا والترويح عندهن بقوله: (من عارض شنب) (استعارة تمثيلية)، و(الجناس التام) في قوله: (سناها-سنا) إذ تعود الأولى إلى الحرب؛ والثانية إلى النساء، وأيضا (عارضها-عارض) إذ تعود الأولى إلى الحرب؛ والثانية إلى النساء، و(التشبيه البليغ) في قوله: (سنا قمر) أي أنها تتلأأ حسنا كالقمر.

(1) ينظر: خزانة الأدب للبغدادى: 413/8 .

الأول عروق الرقبة، والثاني ما يتوصل به كالحبل مثلاً، و(الطباق) في (قطع-وسبب).

ثم يكرر هذا الوصف فيقول كم نالت السيوف المجردة الماضية في قطع الرقاب، التي تهتز بأيدي الشجعان الذين أجسامهم كالقضب، من النساء اللواتي قدودهن كالأغصان؛ تهتز في إعجاز كالكتبان؛ إذ (استعار) من قوله: (تهتز من قضب) إلى أجسام الشجعان التي شبهها بالقضب وتهتز بأيديهم السيوف، و(استعار) لأجسام السبايا قوله: (قضب تهتز في كُتب) إذ شبه قدودهن بالقضب؛ وشبه أعجازهن بالكتب. و(الاستخدام) لـ(قضب) إذ إنها يمكن أن تكون صفة لأجسام الشجعان الذين تهتز السيوف بأيديهم، أو تكون صفة لأجسام النساء التي تهتز فوق أعجازهن التي كالكتبان. و(التكرار) في (تهتز، وقضب) لاختلاف العائد و(الجناس التام) في قوله: (قضب) إذ تعني الأولى السيوف والثانية الأجسام.

ثم يكرر فعل السيوف في الأعداء فيصفها بالبيض إذا سُلَّت من أغمادها، عادت بعد الفتح ببيض الأبدان من السبايا-وهكذا وَصَفُ نساء الروم-وإنَّ سَلَّها مع العودة بهذه الغنائم أولى للسيوف من بقائها في أغمادها، أو إنه استعار من قوله: (بيض إذا انتضيت ... الخ البيت) أي: السيوف التي سُلَّت من أغمادها، إلى الرجال الذين هبوا من ديارهم لنصرة أهل الثغور والدفاع عن حياض الوطن، فإنهم أولى بالسبايا البيض من بقائهن في أقدارهن. والقرينة قوله: (بالبيض أبداناً) إذ لا شأن للسيوف بالجوارى؛ (استعارة تمثيلية)، وفيه (الجناس التام) في قوله: (بيض-بالبيض) الأولى للسيوف؛ والثانية لنساء الروم، وكذلك في قوله: (حجبها-حجب) الأولى للأغماد والثانية للنساء، و(رد العجز على الصدر) في قوله: (حجبها) ثم قَفَى (بالحجب).

66. خَلِيفَةُ اللَّهِ جَارَى اللَّهِ سَعْيِكَ عَنْ جُرْثُومَةِ الْمُلْكِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ (1)

67. بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تَنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ (2)

68. إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ (3)

69. فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نَصَرْتُ بِهَا وَبَيْنَ أَيَّامِ بَذْرِ أَقْرَبِ النَّسَبِ

70. أَبْقَتْ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمَمْرَاضَ كَأَسْمِهِمْ صَفَرُ الْوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ

خاطب المعتصم بأنه خليفة الله في الأرض، ودعى الله تعالى أن يكافأه

عن صيانة وحماية بلاد المسلمين ودينهم

وحسبهم وأعراضهم، وفي قوله: (خليفة الله) (اقتباس) من قوله تعالى: (يا

داودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)

(1) ورد في شرح الصولي: 206/1، وشرح التبريزي: 72/1: جرثومة الدين .

(2) ورد في شرح الصولي: 206/1: بالراحة العظمى .

(3) ورد في النظام: 73/2، وشرح التبريزي: 73/1: مرور الدهر .

[ص/26] . و(التقسيم): وهو استيفاء أقسام الشيء بالذكر⁽¹⁾. في قوله: (جرثومة الملك والإسلام والحسب) وهي أهم ما يحرص عليه المسلم. وقوله: (بصرت...) أي انه لا يستريح إلا بقضاء ما عليه من واجبات الدولة؛ دون النظر إلى ما يحصل له من المتاعب، وفي ذلك (كناية) عن الجِد والحرص. وفيه (القصر: بالنفي والاستثناء) إذ قَصَرَ نيل الراحة بقوله: (بصرت بالراحة... تنال) والاستثناء بقوله: (إلا على جسر من التعب)، واستعار قوله: (إلا على جسر من التعب) إلى الوسائل التي يسلكها؛ والمتاعب التي يتجشمها؛ والألام التي يعاني منها هذا السلطان في تدبير الملك والرعية ليتمكن من العدل بينهم والإحسان إليهم؛ ليعبر بعد ذلك كله إلى راحة الضمير؛ ورجاء مرضاة الله تعالى التي وصفها بالراحة الكبرى، إذ استعار لذلك كله هيئة المشبه به الذي يسير على قنطرة مرتفعة طويلة ويعاني مشاق العبور ليصل بعد ذلك إلى بيته ويهنأ بالعيش مع عياله فيستريح من عنائه (استعارة تمثيلية) منتزعة من متعدد.

وهذا يعني أن سروره لم يكن على صنوف الطعام في الموائد المترفة، أو اللّهُو في أذهار النساء بين تبغّلهن ورضابهن؛ بل بالسعي في إسعاد الرعية؛ وهذا أكمل ما يوصف به السلطان العادل.

ثم يخاطبه بأنه: إن كان في حدثان الدهر بمرور الوقت من رحم موصولة أو حرمة غير مقطوعة، كان ذلك بين نصرك بفتح مدينة عمورية وأثرها في دولة الإسلام؛ وبين نصر الله تعالى الرسول (p) والصحابة (v) في معركة بدر التي كانت نقطة تحول بين الكفر والإيمان، فكلاهما دعامتان وشيجتا النسب في تاريخ الإسلام. وفيهما (اللف والنشر): وهو أن يذكر شيئين فصاعداً ثم يرمي تفسير ذلك جملة..⁽²⁾، فاللف في قوله: (إن كان بين صروف... الخ البيت) والنشر في قوله: (فبين أيامك... الخ البيت) و(المطابقة) في (موصولة-ومنقضب أي: منقطع)، و(التكرار) في (أيامك- وأيام) لاختلاف العائد، و(الجمع والتقسيم) فالتقسيم في قوله: (أيامك اللاتي نصرت بها، وأيام بدر) والجمع في قوله: (أقرب النسب). وإن هذه الأيام الجليلة جعلت بني الأصفر-وهو لقب الروم ويُسَمون به-معلولين صفر الوجوه، إذ شبّه اصفرار وجوههم بمضمون لقبهم (بني الأصفر) بقوله: (كاسمهم صفر الوجوه) من (تشبيه المحسوس بالمعقول). وجعلت أوجه العرب المسلمين مستبشرة بها مشرقة مزهوة مسرورة.

وهذه الأبيات الخمسة الأخيرة يمكن أن تكون (حسن ختام) القصيدة إذ نعت المعتصم بأنه خليفة الله في أرضه المدافع عن الإسلام ودولة المسلمين، الذي لا يُسعد إلا سعادتهم وأمانهم وشيوع العدل فيهم، وإن ما حققه لشعبه ولدينه يعدّ مثابة ودعامة من دعامات العز والعظمة؛ يفخر بها

(1) الإيضاح : 205 .

(2) ينظر: حسن التوصل إلى صناعة الترسّل: 245 .

المسلمون كما فخروا من قبل بنصر الله (Y) لرسوله (p) في بدر وباقي المواقع التي عززت شأن المسلمين وانتشر فيها الدين وانكسرت شوكة الشرك والمشركين، ويمكن أن يكون (حسن الختام) مقصوراً على البيت الأخير، إذ أشار فيه إلى عاقبة الحرب على الطرفين، وذلك: بذل الروم الذي انعكس في خسرانهم وشحوب وجوههم وسقم أجسامهم، وعزة العرب المسلمين الأقوياء بالنصر المستبشرين بالنجاح والفلاح، وهذا كلام يمثل حسن الختام حقيقة إذ أجاد فيه أبو تمام غاية الجودة لأنه كلام لا تنتظر بعده ما يقال ويحسن السكوت عليه.

قال ابن رشيق (ت456هـ): ((وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع وسيله أن يكون مُحْكَمًا، ولا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الأخير قفلاً عليه))⁽¹⁾.

وأما حازم القرطاجني (ت684هـ) فقد وضع ضوابط الختام بقوله: ((فأما ما يجب في المقاطع وهي أواخر القصائد، فإن يُتَحَرَّى أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة؛ وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كرية أو معنى منقّر للنفس عما قصدت إمالتها إليه، وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضع، لأنه منقطع الكلام وخاتمة، فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس، ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو وترמיד بعد إنضاج))⁽²⁾. وفي القصيدة المزيد من أوجه البلاغة؛ وهذا ما أعاننا الله عليه والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(1) العمدة: 239/1 .

(2) منهاج البلغاء: 285 .

الخاتمة

فضلاً عن الدرس البلاغي الذي استمتعنا بأصنافه وأَنواعه في هذا التحليل ، هناك فائدة أخرى تتعلق بنشأة البلاغة ، إذ عُرف العرب بالفصاحة والبلاغة ، وكان الشعراء والبلغاء يتنافسون ويتبارون بها فيما ينشؤونه من شعر أو نثر ، وذلك مشهور في تاريخ الأدب الجاهلي وما تلاه من عصور .

إذ إن القبة الحمراء التي تضرب للناطقة الذبباني بسوق عكاظ للتحكيم بين الشعراء ، والقصائد الحوليات لزهير بن أبي سلمى ، وقول الحطيئة : ((خير الشعر الحولي المحكك))⁽¹⁾ ؛ خير دليل على الدرس البلاغي المتداول بالذوق والفطرة السليمة وفق أسس متعارفة لديهم ابتداءً . ثم ازداد الاهتمام بذلك بظهور الاسلام ونزول القرآن الذي تحدّى الله تعالى ببلاغة وفصاحة العرب وأعجزهم أن يأتوا بسورة من مثله ؛ فعقدت مجالس الدرس والتعليم لأمة إقرأ ، وبدأ التدوين والتأليف في بداية القرن الثاني الهجري ، ومنه : (كتاب الفصاحة) لأبي حاتم السجستاني (ت200هـ) و (معاني القرآن) للفرّاء (ت207هـ) وصحيفة بشر بن المعتمر (ت210هـ) و (فحولة الشعراء) للأصمعي (ت216هـ) ومؤلفات عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ) و (تأويل مشكل القرآن) لعبدالله ابن مسلم بن قتيبة (ت276هـ) و (الكامل) للمبرّد (ت285هـ) ؛ هذا جزء من بواكير التأليف في هذا المجال الذي تطور بوضع مصطلحات بلاغية محددة في (كتاب البديع) لعبدالله بن المعتز (ت296هـ) ، وتطور بعده بكتب البلاغة المعروفة التي توسعت بذكر المصطلحات البلاغية وتعريفها وتقسيمها الى التشعيبات التي نعرفها اليوم.

إن الغاية من استعراض هذه التفاصيل ؛ بيان إن تطور الدرس البلاغي لم يكن ابتداءً من علماء البلاغة الذين ابتكروه ؛ وإنما هو من حقائق هذه اللغة الكريمة ؛ ولم يكن لهم إلا اكتشافه واستنباط المصطلحات التي تناسبه ، وإنّ دليلي في ذلك ما ذكرته من أوجه البلاغة عند تحليلي لقصيدة أبي تمام (ت231هـ) هذه ؛ التي بلغت (إحدى وأربعين صنفاً بلاغياً بما مجموعه تسعة وتسعون ومائة وجه ، التي تناسب تلك التراكيب البلاغية التي ظهرت في قصيدته ، في الوقت الذي لم تُحدد تلك المصطلحات التي نعتناها بها في زمنه وإنما حُدّدت بعده ، وإن تفننه بإظهار تلك التراكيب البلاغية كان من غناء هذه اللغة وقدرتها على مواكبة البلغاء ورفدهم ، ولا غرابة في ذلك فهي لغة القرآن الكريم التي هيأها الله تعالى بحكمته وهياً العرب بصفات أهلتهم لتلقي هذا الكتاب العزيز . وتلك ملاحظة جديرة بلفت الأَنظار إليها والله الموفق .

(1) الشعر والشعراء : 78/1

المصادر:

- 1- أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري
ت538هـ دار إحياء التراث العربي - بيروت ط1 1422هـ -
2001م .
- 2- الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن
القزويني ت739هـ مكتبة النهضة بغداد .
- 3- البرهان في إعجاز القرآن: لابن أبي الإصبع المصري-تحقيق
الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي مطبعة المجمع
العلمي -بغداد2006م .
- 4- تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي
ت911هـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد- مطبعة السعادة-
مصر ط1 1371هـ -1952م .
- 5- تاريخ الطبري-تاريخ الأمم والملوك: لأبي جعفر محمد بن جرير
الطبري-مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ط1 1405هـ-1985م .
- 6- حسن التوصل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين محمود الحلبي
ت725هـ تحقيق: أكرم عثمان يوسف-دار الرشيد للنشر بغداد-
1980 .
- 7- خزانة الأدب: للبغداد طبعة بولاق 1299هـ .
- 8- خزانة الأدب وغاية الأرب: تقي الدين أبي بكر علي المعروف
بابن حجة الحموي-شرح عصام شعيتو- دار مكتبة الهلال-بيروت
987م، وط1 مطبعة القاهرة: 1304هـ .

ملحق بجد الأوجه البلاغية:

ت	الوجه البلاغي	العدد	رقم البيت
1-	حسن المطلع	01	0/1
2-	براعة الاستهلال	02	0/2/1
3-	حسن التخلص	01	0/3
4-	الاقتضاب	01	0/11
5-	الاستعارة التمثيلية	16	2\ 63/54/52/51/49/47/46/41/25/19/13/6 68/66/64/
6-	الاستعارة	21	2\4 /42/33/26/ 2\19 / 2\18 /15/12/5/3/2/1 0/ 2\65 /64/62/59/
7-	التشبيه البليغ	04	0/63/85/30/26
8-	التشبيه	03	0/71/59/27
9-	الكناية	18	2\38 /36/28/23/21/18/ 2\17 / 3\16 0/68/ 2\55 / 2\46/39/
10-	المجاز العقلي	03	0/38/ 2\36
11-	التقديم والتأخير	03	0/ 2\41 /1
12-	القصر	02	0/68/39
13-	الحذف	01	0/37
14-	التكرار	13	0/70/ 2\65 /59/57/53/48/37/32/23/19/15/3
15-	المماثلة	03	0/57/45/43
16-	الجناس التام	06	0/66/65/ 2\63 /47/40
17-	الجناس	09	0/66/64/54/50/21/12/2/ 2\1
18-	الطباق	33	/ 2\26 /20/18/16/15/ 2\14 /12/11/5/ 2\2 /1 /2\48 /47/35/34/32/2\31 /30 / 2\29 / 2\28 0/69/64/62/ 2\61/60
19-	الموارد	03	0/62/40/38
20-	الاقتباس	04	0/67/42/41/39
21-	التورية	01	0/37
22-	التصریح	01	0/1
23-	التشطير	01	0/37
24-	الترصيع	01	0/29
25-	الافتنان	03	0/52/20/3
26-	التفريع	02	0/33/32
27-	المثل	01	0/5
28-	رد العجز على الصدر	13	0/66/64/61/60/53 / 2\50/ 2\48 /44/42/20/3
29-	التفريق	01	0/11
30-	تشابه الأطراف	01	0/22

0/35/30/28 /24/14/11/2	07	المقابلة	-31
0/62/26	02	المبالغة	-32
0/27	01	الغلو	-33
0/67	01	التقسيم	-34
0/49/43	02	الجمع	-35
0/70/46/ 2\45 /44	05	الجمع والتقسيم	-36
0/65/48	02	الاستخدام	-37
0/61/58/57/53/52	05	التسهيم	-38
0/52	01	التسجيع	-39
0/70-69	01	اللف والنشر	-40
0/71-67	01	حسن الختام	-41

المجموع	199
---------	-----

Summary

As well as a lesson rhetoric which we enjoyed Bosnavh and types in this analysis , there is another benefit related to the genesis of rhetoric , as Arabs knew Balvsahh , rhetoric , and the poets and rhetoricians compete and compete out with Ancaouna of poetry or prose , so famous in the history of pre-Islamic literature and subsequent eras .

As the dome of red that hit the genius Thubiani market Okaz arbitration between poets , poems yearbooks for Zuhair bin Abi Salma , and say Alahtaih : ((good hair Holi Mahkk)); testament to the lesson rhetorical rolling taste and common sense according to the principles Mtarefh have a beginning . Then increased attention that the emergence of Islam and the revelation of the Qur'an who defied God eloquently and eloquence Arabs and Oadzhm to come surah of the like ; was held councils lesson and education for the nation, Read , and began blogging and writing at the beginning of the second century , of which: (Book eloquence) to Abu Hatem Sijistani (d. 200 AH) and (Quran) of fur (d. 207 AH) and newspaper Bishr ibn pilgrim (d. 210 AH) and (virility poets) Osamai (d. 216 AH) and works Amr ibn

Bahr bigeye (d. 255 AH) and (interpretation of the problem of the Koran) to Abdullah Ibn Muslim bin Koutaiba (d. 276 AH) and (full) of the cooler (d. 285) ; this is part of the early writing in this area that the evolution of the development of terms rhetorical defined in (Book Budaiya) to Abdullah bin Moataz (d. 296 AH) , and the evolution beyond books rhetoric known which expanded by mentioning the terminology rhetorical and defined and divided into dendrites that we know today .

k